عصرنا العجيب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أعجب العصور فى تاريخ الإنسان كله هو عصرنا الذى نحن فيه ، ولا سيما هذا النصف الأول من القرن العشرين .

لك أن تلغى التاريخ كله مكتفياً بهذه السنين الأربعين أو الخمسين ، لأنك واجد على اليقين مائة عبرة فى مكان كل عبرة تلغيها من تلك التواريخ الغابرة ، ولأنك على يقين واجدها أضعافاً مضاعفة ، فى القوة والكثرة والدلالة والوضوح .

لقد كانت السنون تنقضى فى تواريخ الماضين عشراً بعد عشر ، ومائة بعد مائة ، بل ألفاً بعد ألف فى بعض الأحايين ، قبل أن يظهر للعالم رجل خطير يضطلع بأعباء حادث خطير ، أو قبل أن تقام دولة وتسقط دولة ، وقبل أن تنجلى للأبصار والبصائر بواعث القيام ودواعى السقوط .

أما اليوم فقيام الدول وسقوطها من أنباء الصباح والمساء ، واختلاف العبر وتقلبات المقادير من ذكريات العمر الواحد الذى لم يتجاوز الثلاثين ، ومسرح القدر كريم بالمآسى والملهيات يعرضها خمساً خمساً أو عشراً عشراً فى وقت واحد ، فلا يفوتك فصل هنا إلا عوضته بفصول هناك ، ولا تذكر خيال بوربيد وارستفان وسفوكليس واسكايلاس وشكسبير إلا تلقيت حولك من نسج الواقع روايات مشهودة تفوق كل خيال .

موسولينى من بيت الحداد ، إلى أزقة جنيف ، إلى مظاهرات ميلان ، إلى دست الحكم فى روما القياصرة ، إلى الصولة على العالم كله وهو فى شرفات قصر البندقيـــة يقعقع بالسلاح فيرتجف الأقوياء والضعفاء ، ويحمدون الله على السلامة إذا انقضى ذلك الدعاء بغير النيران والدماء .

وموسولينى أيضاً من هب للسلام يلقى بنفسه أمام القطار ليعوق حركة الجنود التى تغزو طرابلس ، إلى مسعر للحرب لا يقوم ولا يقعد فى حكمه إلا بثمانية ملايين من الحراب ! وألوف الألوف من صرعى البلاد والحراب !

ثم موسولينى هو هو بعينه هاربا يتسلل على أبواب التخوم لا يزال يطمع فى الحياة بما بقى له من سبائك الذهب وسلوى الغرام ، ثم يفوته هذا المطمع الذليل فإذا هو معلق من قدميه لأنظار السابلة الشامتين ، لا تسلم جثته بعد الموت من رصاصة انتقام وبصقة ازدراء .

وهتلر سيد الألمان وصاحب الأمر المطاع فى القارة التى تطلب الطاعة من جميع القارات ...

من طفل مدلل ، إلى جندى مخذول ، إلى شريد على أبواب الصدقة فى العاصمة النمسوية ، إلى حلس قهوات فى ميونخ عاصمة البافاريين ، إلى وارث العرش العريق فى برلين ، وسيد الأمة المختارة كما قال بين أمم العالمين . كلمة فإذا العالم يتساءل ماذا يريد ؟ وهمسة فإذا هى أجهر فى الآذان من البروق والرعود ، وحركة فإذا الأكف على الصدور ، وغضبة فإذا المغرب والمشرق يتحدثان بالشرور وعظائم الأمور .

عاش ليفتح الأرض بما رحبت ، ومات لتضن عليه الأرض بقبر من ألوف القبور .

وفى روسيا ، أين دولة القياصرة ومن كان منهم يدعى بالأب الصغير إذا دعى الله بالأب الكبير ؟

وفى القسطنطينية أين دولة الخواقين ومن كان منهم يدعى بظل الله وخليفة رسول الله ؟

وفى أمة الفرس أين عرش الأكاسرة ؟ وفى أمم الصين أين عرش أبناء السماء ؟

لا تسل عن هؤلاء وسل عن لينين وكمال ورضا وشيان ، وكلهم بين طالب منفى وجندى ناشىء وثائر مغضوب عليه .

ودع السياسة والحرب وانظر إلى النسك والزهادة تر فى الهند ناسكا حاسر الرأس حافى القدم ينازل الدولة التى صمدت للنزال ، فى ميادين السياسة وميادين القتال .

ودع النسك والزهادة وانظر إلى عواطف القلوب وخلجات النفوس تر العاهل العظيم الذى يتخلى عن ملكه ولا يتخلى عن زوجه وشريكة فؤاده وروحه .

ودع كل هذا وانظر إلى الصناعة والاختراع تر الإبداع الذى ينسيك كل إبداع : هاتف فى أقصى المغرب تسمعه فى لمحة عين وأنت على عشرات الألوف من الأميال ، وطيارة تسابق الشمس فتذرع الشرق والغرب فيما بين ليلة ونهار .

سامن شىء فى مصارع الدول ومقادير الشعوب ، وسامن شىء

فى مظاهر القوة بين مظهر خادع ومظهر صحيح ، وما من شيء في أفانين الدعوة التى تقال أو لا تقال ، وما من شيء فى أساليب الغلب بالسياسة أو بالسلاح ، وما من شيء فى موازين التقدير ومقاييس النجاح والإخفاق ، ومامن عبرة فى حياة الأمم أو الأفراد خلت منها هذه السنون الخمسون ، أو نقص نصيبها منها عن نصيب الدهور متجمعات متلاحقات .

أفنحن سعداء بهذه الآونة العجيبة أم أشقياء ؟

إن كانت السعادة وفرة الحياة وثروة التجربة فنحن سعداء ، وإن كانت السعادة خلو البال من العبر والأحداث فنحن لا نغبط السعيد الخالى ، لأن الخلو لم يكن قط بالنعيم الذى يعمر النفس ويحمده الأحياء .

فالعمر فى هذا العصر الحافل لا شك أعمار ، والحياة بين هذه العوالم لا شك حيوات ، وما نخال أحداً يستبدل بأيامه فى هذا العصر أياماً فى العصور الأخريات ولديه سبب مفهوم .

قال قائل وقد كنت أذكر عجائب عصرنا : نعم ويخيل إلى أناس مع هذا أن العصر عصر باهت لا عجب فيه ، وأن العجائب حق العجائب قد ذهبت مع ذاهب العصور ، لأنهم يعجبون على البعد ولا يعجبون على القرب ، ولا يعلمون أنهم متعجبون إلا إذا قرأوا أنهم متعجبون !

وسأل سائل : لكن أليس بعجيب من هذا العصر أنه لم يبدع ملحمة من الشعر كملاحم الأقدمين ، وما كانت طروادة وميادينها وأبطالها إلا حادثة من حوادث الأقسام فى جوانب الحوادث التى مرت بأهل هذا الزمان ؟

قلت حذار يا أخانا أن تخطىء هذه الخطأة التى ينزلق إليها نقاد الظواهر مغمضين ! . . لو أن أدباء الملاحم النابرة عاشوا فى عصرنا هذا لما كان شأنهم غير شأن الأدباء الذين يعيشون فيه . لأن الاختلاف إنما يكون فى النظر إلى الوقائع لا فى ضخامة الوقائع ونصيبها من السعة والضجيج . وحذار يا صاح من كل رأى يسول لك أن تجرد الخلائق الآدمية فى بعض الأجيال من سليقتهم التى طبعوا عليها فى غير ذلك الجيل ؛ فإن السليقة لا تتبدل إلا كما يتبدل الناس بين عصر اليقظة وعصر الغفلة والجمود ، فإذا لم يكن العصر عصر غفلة أو جمود فسليقة النفس الآدمية واحدة من أقدم العصور إلى أحدث العصور ، ولا سيما فى مسائل الحس والتعبير .

أما أن الأقدمين نظموا الملاحم فيما هو أهون من أعاجيب اليوم فإنما نظموها لأنهم كانوا يتلقون الحوادث بدهشة الخيال ، ولا يستعظمونها مع هذا حتى يضفى عليها القدم ثوبا من الغموض والتهويل .

ولا كذلك يصنع المحدثون حين يتلقون الحوادث الكبر فى عهدهم المشهود أوفيما غاب عنهم من العهود ، لأن الحادثة الكبيرة تقع بينهم فإذا هى حبر فى الصحيفة ، وحديث فى المذياع ، وصورة على اللوحة البيضاء ، وموضع للتحليل فى كتاب ، وباب للترجمة وسرد السير فى سجل من سجلات التاريخ ، ودرس من دروس الصناعة فى المعامل أو معاهد التدريب . فقد شبع منها الحس واستنفدها اللسان ، والحس إذا شبع من شيء لم يرجع به إلى دهشة الخيال ؛ واللسان إذا استنفد القول تحليلا وتعليلا لم يبق منه بقية للغموض والتهويل .

ترى لو كان « هوميروس » قد شهد حصان طروادة صورة متحركة ، وقرأ أبطال الإغريق كتباً مفصلة ، وسمع المساجلات بينهم حديثاً مذاعاً أو أصداء على اللوحة البيضاء ، وعلم أنه لا أرباب هناك ولا أنصاف أرباب ، وأنه لا نبتون فى البحر ولا زيوس على متن السحاب — أكان ينظم الإلياذة كما نظمها أو كان الناس يسمعونها منه كما سمعوها ؟

إن الخيال يعمل حين يلجئه الخفاء إلى العمل ، وإن المرء ليضفى حلل الخيال على الغانية فى البرج المحجوب ، ولكنه حين يراها إلى جانبه فى الترام ، وينظر إليها وهى تأكل الطعام ، ويستمع إليها وهى تتكلم فتحسن الكلام أو لا تحسن الكلام ، يفكر فيها كل تفكير يخطر على البال إلا أن يلحقها بأجواء الخيال .

ولسنا نعنى بهذا أن الحوادث فى عصرنا لم تبق بقية للخيال الشاعر وبديهة الفنان ، ولكننا نعنى أن النظرتين تختلفان وأن التخيل فى عصرنا أصعب من التخيل فى تلك العصور ، فما كان يسيرا على هوميروس فى أيام طروادة لن يتيسر له هذا اليسر فى عصر دنكرك وستالنجراد .

نحن نشبع من الحوادث حساً وفهماً فلا نعجب لها كما كانوا يعجبون وهم يتلقونها بالدهشة والخيال ، وعلى هذا قد تمضى السنون الطوال قبل أن نحس ما نحن فيه كما ينبغى أن نحسه ، وقبل أن نفهمه كما ينبغى أن نفهمه بمعزل عن الأهواء .

عباس محمود العقاد